د.سامي الكيالي

الشَّباب العَربي

بين التقليد والتجديد



منشورات الطليعـة

الشَّباب العَربي بين التقليد والتجديد

الاهـداء

إلى كل مفكر حر

إلى شباب العرب

إلى الناشئة المعقود عليها الامل فى البعث القومى

أهدى هذه الصفحات .

سامى الكيالى
دمشق - 1943

« لا تتعصبوا للقديم فينسيكم فضل الجديد ، ولا تتعصبوا للجديد فتأخذوه بترابه وتبره وأنتم تحسبون ترابه تبراً ! فإذا دعوناكم إلى اقتباس بعض النظم الغربية التى يضطرنا إليها تنازع البقاء ولا تنافى جمال ماضينا ، فذلك لأننا نريد أن نسلحكم بسلاح تقفون به أقوياء بجانب القوى . مرحباً بالجديد إذا كان لنا فيه عزة ومنعة وقوة . وسحقاً لهذا الجديد إذا ضيع علينا ميراث الآباء من كرم وحياء ومروءة وصدق وإيمان بالله »

منصور فهمى

ما موقف شباب العرب من النزعات التجديدية ؟

قبل الجواب عن ذلك نتساءل : ما القديم ؟ وما الجديد ؟ وهل ثمة جواب صريح يمكن أن يطوى هذين السؤالين بكلمةٍ حاسمة ؟

نريد أن نقول : « لا » ، وفى وسعنا أن نقول « نعم » . ومن الخير أن نتخطّى الاستطرادات لنترك لظواهر الأحداث أن تجيبنا عنه جواباً بليغاً .

ولنأخذ أقرب الأمثلة للتدليل على ظواهر هذا النضال ، ولتكن أمثلتنا من جوانب التاريخ ، ومن هـذه الملابسات التى أعقبت الحرب الكبرى . . . فمنذ عشر سنوات أو أكثر(١) . . أى منذ انطوت صفحة الحرب الكبرى بحسناتها وسيئاتها ، رأينا فى العالم كله ، لا فى الشرق فقط ، تغيراً محسوساً فى شكل الحياة ، وميول الجماعات . . وكأنما هذا « الاتزان » الذى كان يسود العالم فى سائر بيئاته قد اختلّت حركته بعض الخلل . . ولا نقول إنه انقلب إلى « الفوضى » بل نقول إن الخصائص الخلقية التى كانت كمينة فى النفوس إلى حدّ ما قد انطلقت فى آفاقٍ غير محدودةٍ تتمتع بفيض الحرية ونعيمها المزدهر . .

وهذا التحرر بل هذا الانطلاق الذى هضمته بعض الأمم أو كادت ، ووقف شجًى فى حلوق بعضها ، فأقعدها عن السير والتقدم — هو الذى يميّز بين أمة وأمة . . وبديهى أن يعتبر الشعب الوهن الضعيف الذى لا يقوى على السير ، ولا تهضم

معدته التطور ، ولا يستطيع أن يجارى عصر السرعة فى كل اتجاهاته — بديهى أن يعتبر شعباً « قديم » النزعة بالنسبة إلى الذى ارتضى « التطور » وجعل الوثب ديدنه فى كل شىء . .

ومن هنا نستطيع أن نتلمّس الفروق بين « القديم » و « الجديد » ، وبين أمة وكلة ضعيفة تريد أن تكون محافظةً فى كلِّ شىء . . وأمة يقظةٍ نشيطة تريد أن تجدد كل شىء يمسُّ مظاهر الحياة . .

ويحدثنا التاريخ أن لنهضة كل أمة قصة طويلة تنطوى فصولها على فتراتٍ تكون فيها محافظة ، ثم تضطر بحكم امتزاجها بغيرها من الأمم أن تثور باتئاد على بعض عاداتها ، وأن تجدد مضطرة بعض هذه العادات التى تعوق سير تقدمها . . وما تزال حتى تتلمس النور على وضح من النهج القويم .

وبمهلة قصيرة عند هذا العراك الذى قام بين العقائد والديانات قبل ألفى سنة مثلاً تبدو لنا ألوان حية من الخصومة بين القديم والجديد . . كان العالم القديم يعيش على ديانات من صميم الأساطير فلما ظهرت اليهودية وأعقبتها النصرانية قام الناس يحاربونها بكل ما لديهم من قوة . . « لقد كانت اليهودية رسالة جديدة بالنسبة إلى طبيعة الديانات الوثنية القديمة . . وجاءت النصرانية بعدها، فكانت أشدّ مخالفة من اليهودية لطبيعة الوثنية ولطبيعة السياسة التى

كانت تقضي على الشعب أن يعتبر السلطان خليفة الله فى أرضه .
ومرت فترة من فترات التاريخ قام بعدها النبي الكريم محمد بدعوته، وإذ قام بدعوته الواضحة ورسالته العليا نبذه قومه وحاربه المشركون، ورأوا فى الإجابة إلى دين الله خروجًا على القديم وكراهية لأن يعبدوا مالم يكن يعبده آباؤهم .

هذه أمثلة واضحة يذكرها كل إنسانٍ اطلع اطلاعاً عارضاً على تاريخ الديانات ونشأة العقائد ، وقد مررنا بها مروراً سريعاً ، وفى وسعنا القول بأن هذه الأمثلة قد تجددت على تعاقب الأجيال . . ولا يتسع المجال لنروى عشرات الأمثلة على هذه النزعات التى تنبثق فى كل عصر من أعماق فئةٍ من المفكرين الأحرار يعملون على تحرير أمتهم . نعم ؛ فى مثل هذه الحالات نسمع صيحات الأحرار المجددين الذين يعملون على إيقاظ الشعور وتنبيه الخامدين، لكيلا تصبح الأمة طعمة أمةٍ غيرها فى كل مظهر من مظاهر الحياة .

ولقد انبثقت روح التجديد فى الأمة العربية منذ نصف جيل أو أكثر، حين ارتفعت أصوات الأحرار بالثورة على الظلم ، وبفهم روح الإسلام على حقيقته وتخريج مذاهبه بما يلائم روح هذا العصر فى تطوّراته ونزعاته الحرّة .

هنا ثار الأقدمون من رجالات الحكم فى ذلك الدور المظلم ،

وأخذوا يصورون هؤلاء الأحرار للدهماء بأنهم آلات هدم وتخريب فى كيان الدولة و فى أسس الإسلام

كان صوت الحرية يرعبهم رعباً شديداً ، لأنه ثورة منظمة على أسس الظلم وعلى هذا الغنم الكبير الذى يستأثر به أفراد فى سبيل لذاذاتهم المنكرة . . وثورة التجديد اليوم هى ثورة الحرية بالأمس . كانت ثورة الأمس على الظلم والاستبداد ، فأصبحت ثورة اليوم عليهما وعلى الجهالات و التقاليد ، وعلى الذل والاستكانة والخنوع ، وعلى كل ما يغلّ الفكر و يضعه فى سلسلة محكمة من الأصفاد ، والذين يحاربون التجديد وأريد الذين يحاربونه باسم الدين أحياناً ، يحاربون هذه الروح القوية التى تريد أن تنزع عن الشرق الكثير مما علق بنفس أبنائه و بكيان جماعاته من خمول العهد الماضى وذله المسكين ! .

ونستطيع أن نخرج من هذا التدليل على أن عناصر التجديد تقوم فى كل نهضة حية على المبادئ الآتية :

ثورة العلم على الجهل

ثورة الحرية على الظلم

ثورة الحركة على الجمود

ثورة النظام على الفوضى

ثورة السيادة على العبودية

ثورة الإيمان على الوثنيــة

ثورة الهدى على الضلال

وبالتالى انقضاء عهدٍ مظلمٍ آسنٍ ، وانبثاق فجر جديد لامع فى حياة الأمة وتطوّرها .

واستفاق الشرق على هذه المبادئ القويمة ، ولا سيما بعد الحرب الكبرى ، ورأى أن عزلته وانزواءه وعدم احتكاكه بالغرب وعدم أخذه بمبادئ الحضارة الراهنة ، مما يضعضع كيانه ويجعله ذليلاً مستكيناً بل مستعبدًا للغرب فى جميع مظاهره السياسية والاجتماعية والأدبية . ووقف قادته ودعاة الإصلاح فيه يبحثون هذا الامتزاج ، وهل هو يضر الشرق أو يفيده ؟ هل نقتصر على خصائصنا القومية وهذه القوى الكمينة فى نفوسنا ؟ أو علينا ، مع احتفاظنا بهذه الخصائص ، أن نأخذ أساليب الغرب وأساليب كل أمة قد التمست هذه الحياة الجديدة التى نلتمسها نحن ؟

وانتهى بهم الأمر إلى أن ليس فى اتخاذ أساليب الغرب ما يعوق نهوضنا أو يمس خصائصنا القومية ، بل الأمر بالعكس،

فقد ظهر لهم أن تلك الاساليب هى الأسس الصحيحة التى يجب أن ترتكز عليها نهضتنا ، ومشى الشرق بروحه القوية ونزعاته الحرة على منهج الغرب ، وكان من أثر ذلك أن اصطدمت بعض البيئات الشرقية بل أكثرها بأعداء الاصلاح وبهذه الجموع الكثيفة — جموع الجهالات وعناصر الرجعية — تحركها يد السياسة على الأكثر ، لتضرب رجالات الإصلاح الذين يحاولون أن ينقذوا الشرق مما هو فيه ، ليكون سيّد نفسه وليستعيد مكانته السامية التى كانت له فى ماضيات أيامه .

ولا يزال الصراع قوياً بين الفئات المجددة و بين الرجعيين : الشباب المفكر فى جبهة ، والمتزمتون و بقية العناصر الجاهلة فى جبهة أخرى .

✡ ✡ ✡

والنزعات التجديدية التى تغمر الشرق العربىّ فى يومنا هذا ، والتى يحمل الشباب ألويتها . . هى دعوة صريحة ورسالة واضحة لا غموض فيها ولا التواء . .

ينادى الشباب أن دعوتنا قائمة على هضم حضارة الغرب لفهم حضارة الشرق . . وإننا إذ نحاول هضم هذه الحضارة لا نلتمس قشورها بل لبابها ، ولا يهمنا عَرَضها بل جوهرها ، ومعنى هضم لباب هذه الحضارة التى تعبتْ أقوى الأدمغة فى

خلقها والتى هى عصارة الحضارات القديمة — معنى ذلك انتصارنا فى ميدان الحياة واستعادة هذا الماضى الذهبى، وبعث مخلَّفات السلف المطمورة تحت ركام من سجوف الجهالات وظلمات التقاليد الكثيفة . . ومن الغريب أن ترتفع إزاء هذه الصيحات المخلصة صيحات منكرة تنادى بأن هذه المحاولات ليست إلَّا نتيجة حتمية لانهيار صرح الأخلاق وتزعزع العقائد وتلاشى خصائص الشرق فى إباحية الغرب ! . .

وكأنما طابع هـذه النزعات التجديدية التى تواجهنا ونواجهها ، والتى يخاف مظاهرها أكثرنا ويعبّ من رحيقها بعضنا ، كأنما هذه النزعات لغز مبهم غير واضح الجوانب ، حتى لنرى الكثيرين من ضيق الفكر يفترضون فى أمرها افتراضات سلبية ، فينظرون إلى ما تفيضه من نعيم كأَنه رجس من عمل الشيطان . فيبتعدون عنها ويداخلهم الريب فى ظواهرها وخفاياها، وييأسون هذا اليأس القاتم الذى يطبع على جموعهم سمات الموت فيلبسون ثوب الحياة وما هم بأحياء ! .

لا سبيل إلى نهوض الشرق قبل ازدراد حضارة الغرب وهضمها هضمًا جيدًا .

هذه هى رسالة الشباب التى يخافها جموع الرجعيين الذين ينكرون مبدأ الحياة ويقنعون بخيالات العصور الوسطى !

وتشتد ثورة النضال بين هاتين الفكرتين، بل قد اشتدت وطغتْ . . ولكن لمن الغلبة ؟ لا شك أنها للشباب المؤمنين برسالة الحياة. لأنهم إذ يقدرون نزعات العصر وخصائص التطوّر واتجاهات الرقى والنهوض، يعملون فى سبيل تحرير الشرق من عبوديته لينعم بحريته المفقودة. وهذا الذى يدعونا أن نشد أزر هذه العناصر فى كل محاولة يقومون بها ما دامت منبثقة من صميم الحق، ولا يقصد منها غير تحرير الشرق سياسيًّا واقتصاديًّا . . وإذ يصل الشرق العربىّ إلى هذه المرحلة ستتجه إليه البشرية لترى أىّ دور سيلعبه على مسرح الكون ؟ هل تكون حضارته حضارة المستقبل التى ستنقذ العالم مما فيه من آلام وأوجاع، وما يشكوه من صراع إثر صراع ؟. أى هل يتاح له تجديد تلك الرسالات التى غمرت البشرية قبل آلاف السنين حينما قام الرسل بدعواتهم لتضميد جراحات البشرية الدامية ؟ وإذ يصل إلى هذه الساعة الحاسمة من تاريخه الحديث، هل يمد يده إلى الغرب مصافحا ليتعاونا على إسعاد الكون ؟ وأخيرًا هل بالتماع نجم الشرق مرة ثانية وازدهار حضارته تنهار حضارة الغرب وتتلاشى على صخرة هذا التفسخ الخلقى الذى يشير إليه بعض فلاسفة الغرب منذ أعوام غير قليلة[1].

---

(١) يعتقد ماكس نورداو أن المدنية الأوربية قد وصلت إلى المرحلة الأخيرة التى يصيبها الانحلال ويتلوها الهدم والفناء.

أسئلة تمرّ بالخاطر وليس لأحد أن يتكهّن بأجوبتها تكهنًا حتميًا . وليكن مصيرها فى ضمير الغيب ، ولكن أما ونحن أمام تطوّر كبير فى كل ظواهر الحياة ، أما ونحن أمام تطوّر حتى فى ذهنية الغرب ووجهة نظره إلى الشرق ، أما ونحن إزاء هذا التطور المحسوس أفليس الواجب يقضى علينا أن نوجّه سيرنا فى الطريق التى سلكها غيرنا من الأمم لنبلغ أسمى أمانينا ونتخلص من الأصفاد المحيطة بنا ؟

كان الشرق إلى عهد غير بعيد مجهولاً من الغرب ، كان ينظر إليه نظر العملاق إلى القزم ، ونظر الرجل المفتول العضلات إلى دمية صغيرة . . بل كانت نظرة الغربى إلى الشرقى نظرة مَنْ بلغ أعلى طبقة فى السماء إلى أناس يضربون فى الطبقة الدنيا من الأرض . وقد تكون هذه النظرة الضيقة هى التى أوحت إلى شاعر الامبراطورية كيپلنك أن يرسل كلمته التى رددتها الآفاق :

« الشرق شرق والغرب غرب ، ولن يلتقيا »

ومرت أيام وامتزج الغرب بالشرق ، درس نفسيته ونفذ إلى أعماقه ، عرف بعض ما يخفى وما يظهر ، ما يكنّ وما يضمر ، فاذا بالنظرة تتحول من ازدراء الشىء إلى احترامه بمقدار ، ومن محاولة ابتلاعه إلى الحذر منه والخوف من يقظته ! وإذا بنا نسمع أصواتًا

تخالف ذلك الصوت كل المخالفة . وإذا بروح الأديب تتعالى على روح الشاعر . وإذا بنا نسمع الأديب البلجيكى ميترلنك يقول إن الشرق والغرب أشبه بفصين من فصوص الدماغ :

الواحد مركز العقل والعلم والوجدان

والآخر مركز الروح والدين والعقل الباطن

الواحد يبحث فيما يستطيع أن يحد ويفهم

والآخر فى غير المحدود وغير المعلوم

وهنا يصرخ هذا الأديب العميق : « لقد حاولا غير مرة أن يتداخلا وأن يعملا معاً . ولكن الفص الغربى شلّ مساعى الآخر ومحا أثره . ولقد آن الأوان لتجديد الفص الشرقى المشلول » .

وإذ نسمع هذا الصوت نرى فئة من أعلام التفكير الغربى تشك فى قيمة الحضارة الآلية وترى « أن المدنية الصناعية كانت مهداً قوياً لغلّ الإرادة الانسانية وتضييق دائرة الخيال المخترع لأنها تزج الإنسان فى سلك النظام الآلى ، وتحوّل جهوده ونشاطه إلى شرّ عادات وغرائز ، وتسقط إنسانيته الحرة المريدة المطلقة إلى درك الحيوانية المحكومة بغرائزها وعاداتها وظروفها » وترى هذه الفئة أن الغرب اليوم يئن تحت أثقال هذه المادية التى تشوب جمال حضارته ، وتظهره كمن يعيش فى مغارة مظلمة مسدودة النوافذ يشكو هذا الضيق من مشكلاته السياسية والاقتصادية —

هذه المشكلات التى هزته هزاً عنيفاً ؛ وإذا بنا نسمع أوسوالد شپنكلر يدوّى صوته فى قلب أوربا دوياً مرعباً ، وإذا به يرى أن مقارنة الحضارات بعضها ببعض قد دلته على أن الحضارة الغربية قد بلغت سن الشيخوخة . . وأن ساعة القضاء حمّت ودقّت — ذلك القضاء المبرم الذى يعتبر من الجهل أن يعصى . . وإذ يصف التاريخ بأنه قيام المدنيات وسقوطها فى أدوار تكاد تعيّن بالدقة يقول : إن مدنيتنا — أى المدنية الغربية — تدنو من نهايتها[1] »

ولم يقف الاتجاه الغربى عند هذا الحد ، بل رأيناه يزداد إمعاناً فى بحث هذه المشكلات التى تواجهه وتحيط به وتتصل به اتصالا من بعيد ، ورأيناه يتطلع إلى آفاق غير هذه الآفاق المملوءة بالسحب والأنواء والعواصف . وإذا بنا نسمع برتراند رسل الفيلسوف المعاصر يصرخ : « إن أوربا تحتاج إلى حضارة جديدة أو حضارة تختلف كل الاختلاف عن حضارتها الحالية » . . فما لون هذه الحضارة ؟ أحضارة الشرق هى أم حضارة ممزوجة من مادية الغرب وروحية الشرق معاً ؟

✡ ✡ ✡

(١) استطلعت إحدى المجلات السويسرية رأى بعض كبار كتاب الغرب فى مستقبل أوربا ومصير حضارتها ، فأدلى أندره جيد الكاتب الافرنسى بمطالعات سديدة عن مستقبل الشرق وموقف الغرب انتهى إلى أنه يعتقد أننا نرى فى هذا العصر خاتمة دنيا ونهاية ثقافة واحتضار حضارة ، وقد ألمع برأيه هذا إلى مصير الغرب

إزاء هذه الاتجاهات التي يتّجه إليها أكابر مفكرى الغرب بعد أن كانت أوربا تنظر إلى الشرق بعيون كپلنك وتفكيره المحدود.
إزاء هذا التبدل الذى أملته يقظة الشرق فى السنوات التى تلت الحرب الكبرى، أليس لنا أن نعرف أين يكون موقفنا فى هذه الرقمة الكونية؟ وإلى أى هدف يجب أن تتجه أنظارنا؟ أو ليس من الواجب أن نأخذ للأمر عدته، وأن ننزع عن عقول أكثرنا هذه الجهالات التى تغلّف موضع التفكير منا؟

قد يكون أمام الشرق حمل وقر هذه الرسالة العليا التى تنتظرها البشرية، وينتظرها الشرق والغرب معاً. فهل فى وسع أبنائه أن يحملوا هذا الوقر الكبير قبل أن يأخذوا للأمر عدته، وقبل أن تنضج شعوبه على هدى العلم اليقينى، وضوء الإيمان بحرية الفكر؟. نعم، إن أولى واجباتنا أن نقوّى كل ذرة تنبض فى مجموعة الدورة الدموية من كياننا الاجتماعىّ.. وإذ نقوّى فينا هذه العناصر على أسس التفكير الغربى، نعود إلى مجموع حضارتنا القديمة نستخلص منها أصفى ما فيها من كنوز لنجتاز مراحل الفلسفة الغيبية إلى الفلسفة الواقعية التى تواجه الحياة وتزنها بمعيار الواقع. وعندئذٍ نطل من كوّتنا الضيقة، من شرقنا الواسع ذى الخصائص المشرقة، لنلعب الدور الكبير فى تاريخ البشرية.

ولكن متى نصل إلى هذا الدور؟

قد يكون أمامنا عشرات السنين ومئاتها ، وليست مئات السنين شيئاً يذكر فى عمر الشعوب ، بله فى عمر البشرية . . إذن فما دمنا قد رسمنا الطريق . . وما دامت زمر الشباب هى التى تخطو خطواتها التجديدية الجريئة ، فما علينا إلّا أن نسير وراء هذه الزمر الحية غير مترددين ولا وجلين لنصل إلى القمة العليا .

نعم ، إن جموع الشباب هى التى تحس بهذه الاتجاهات . . وهى التى تشعر بواجبها نحو المستقبل، وتستعدّ لحمل الرسالة ، للتضحية وبذل المهج الغالية . وهذا الذى يهيب بنا أن نرسل الصيحة تلو الصيحة فى أذن الشباب — هذا العنصر الحى الذى يستجيب لنداء الحرية ، وللنزعات التجديدية ، فيندفع بإيمان وإخلاص ، ويشعر شعوراً قوياً بأن لكل عصر خصائصه وألوانه . وما علينا إلّا أن نزدرد خصائص هذا العصر ، لكيلا نظلّ « غيبيين » فى عصر ترتكز حضارته على « الواقعية » ، وأن نتجه إلى تطورات المستقبل لا إلى خيالات الماضى .

آمنتُ بالفكر قوة أزلية لها مقامها السامق المشعّ .

وبالحرية هناءةً من الهناءات .

وبالحب ينبوعاً عذباً يطهر القلوب من الأدران .

آمنتُ بهذه العناصر التى ما هَدَفت إليها أمة وآمنتْ بها

إيمان الواثق المطمئن إلاّ بلغت أسمى الغايات .

۞ ۞ ۞

خرج العرب من جزيرتهم وهم خلو إلاّ من الشوق ... الشوق الشعرى الممزوج بالإيمان العميق ... ففى واحاتٍ من الأمل ، وفى صحراوات من الحب واليقين ، وعلى أهازيج الحرية ووهجها الدامى رسموا لأنفسهم أبلغ طرق المجد . وما هى إلا غفوة من غفوات الكون حتى خلقوا بمعجزة كبرى إمبراطورية مترامية الأطراف ، ومدنية فذة عاشت وستعيش مدى الأزمان .

۞ ۞ ۞

كم يعوز العرب فى يقظتهم هذه إيمان أسلافهم الأولين ، ذلك الإيمان « الخام » ، البدائى ، غير المصقول بسنا العلم وبريق الحضارات .

۞ ۞ ۞

يعيش الانسان فى أغوار ماضيه أكثر مما يعيش فى صميم حاضره .. ولكن هل علمتَ أيها العائش فى متع الأحلام أن الذى يعيش فى أغوار الماضى الآسن المنقبض المتخاذل يظل آسنًا منقبضًا متخاذلاً ؟

۞ ۞ ۞

إن الماضى قوة خفية لإبداع مستقبلٍ أجمل وأبدع وأكثر حيويةً من الحاضر اليقظ ، ولكن كيف نستغل ماضينا الخالق المبدع ذا الدفقات المشعّة فى شتى ميادين الفكر ؟

هنا السرّ !

إن تمسكنا بمجد ماضينا لا ينبغى أن يصرفنا عن حاضرنا المتفاعل . أمّا إذا آثرنا الغيبيات المعتمة على اليقين المشرق فكأننا أشباه أموات من الأحياء . أو إذا أردنا الدقة ، فأشباه تماثيل كابية بدون حراك على حين يسير العالم إلى الأمام بمثل السرعة التى تنطلق فيها الأسهم من فم « الصواريخ » !

☆ ☆ ☆

ما هى رسالة العربى فى هذا العصر ؟

رسالته : الخلق والإبداع — خلق كيانه المفقود توطئةً للابداع .

وليستطيع أن يعمل ما عمله العرب الأقدمون فى تاريخ الفكر الإنسانى ، عليه :

أولاً : أن يطّرح « وثنيات عصور الانحطاط » التى طغت على تفكيره فترة ركوده ، والتى كادت تفقده شخصيته ، وترده إلى أغوار الظلمات .

ثانياً : يجب أن تقوم عناصر هذه الرسالة على البعث القومى ، وإحياء الثقافة العربية القديمة إحياءً علمياً ينقيها من الغيبيات . فقد تكون « الغيبية » مفيدة لعصرٍ ما ولبيئةٍ ما . أما فائدتها للعرب فى هذا العصر فأمر مشكوك فيه . وعلى هذا واجب العربى أن يرتدى من ماضيه الثوب النقى فقط — ذلك الثوب البديع الذى نسجه بفيضٍ من هيامه وشوقه ، من إلهامه وإيمانه ، فجاء ثوباً غير مبهرج بالزخارف والألوان ، أجمل ما فيه دقة صنعه وبساطته ، ثوباً نقياً رائعاً ، اشتهى أن يلبسه كثير من الشعوب — والحضارة ثوب قد يصلح لباساً لكل أمة فيها نزعات الحياة — فلبسوه معجبين مزهوّين فى حقبةٍ غير قليلة من خاليات القرون . نعم ، واجب العربى اليوم أن يحيي تراثه القديم الضخم ، وأن يعبّ ما استطاع من سلافة هذا العصر ، وأن يخلق من هذا الامتزاج رسالة إنسانية جديدة ، لا لقومٍ دون قوم ، بل للبشرية بمختلف أجناسها ، أو بكلمة أعم للعالم أجمع .

* * *

وبعد .. أفيتاح للعرب أن يمثلوا دورهم فى تاريخ البشرية مرة ثانية ؟ أم جفّ معين حيويتهم ، وخبا فيض إشراقهم ؟ والأمم كالأفراد كما يقول علماء الاجتماع ، تمرّ بما يمرّ به كل كائن حى : ولادة ، فطفولة ، فشباب ، فكهولة ،

فشيخوخة ، فموت ؟ . .

ونتساءل قبل أن نرسم خطوط هذا الجواب : هل مرّت الأمة العربية بهذه الأدوار ، أو بالفصل الأخير من رواية هذه الفكرة التي تبدأ بالولادة فالحياة ، وتختتم المأساة بالموت والعدم ؟ . الواقع ، أن شمس الأمة العربية – شمس حياتها الزاخرة بعناصر القوة والحيوية والشباب ، قد كادت تغرب ، وبالفعل قد دبّ فيها الهرم ، و وقفت طويلاً عند عتبة الشيخوخة تصارع الفناء بحيوية عجيبة و بقوة مَنْ لا يريد أن يموت ، ومرّت بها قرون وهى واقفة بدون حراك ، حتى إذا كشر الموت عن نابيه الأزرقين الحادّين يريد أن يزدردها لقمة سائغة و يطّرحها فى لجج العدم ، استحالت هذه الشيخوخة المتهدمة وهجاً من نور ونار ، و وخزات حادة من شوك وقتاد ، فلم يستطع ذلك الغول أن يطويها كما طوى غيرها من الأمم ، وكأنما هذه المداعبات المؤلمة أو الهزات المرعبة قد أيقظتها بقوة فانفلتت من غمرات السنين وأحداث القرون طفلة جديدة ، تحبو وتلعب ، تقفز وتمر ، وقد تبكى وتصرخ كأن بها جِنة ، وكيف لا تجنّ فرحاً وقد لبست ثوباً جديداً من الحياة ؟ وما هى إلا يقظات من عمر الزمن حتى استقوتْ ، وهى الآن فى جدة الشباب تحاول أن تخطّ فى تاريخ الفكر العربى للمرة الثانية ، صفحات جديدة أشدّ وهجاً وأبهر سنا من صفحتها الأولى .

ومَنْ يخامره الشك فى قيمة هذه الوثبة المنتظرة فما عليه إلا أن يقرأ تاريخ العرب بكثير من الإمعان ، فهم منذ القديم أصحاب معجزات . والله وحده يعلم ما يلده الغد من أعاجيب .

شىء واحد يعوزنا للوصول إلى أهدافنا السامية :

الإيمان

الإيمان بقدسية الفكر

الإيمان بقدسية الحب

الإيمان بقدسية الحرية

وهـذا الذى دفع العرب من جزيرتهم الجرداء القاحلة لينشروا رسالتهم السامية على الدنيا .

وهذا الذى يعوزنا فى نهضتنا هذه ، وفى عصرنا هذا .

سامي الكيالي

دمشق - 1943



منشورات الطليعـة تونس 1988